

مركز محمد حسن الوزاني
للمدقراطية و التتمفة البشرففة



محاضرات المركز

رقم 1 - 2016 / 2015



محاضرات المركز

رقم 1 - / 2016 2015

مركز محمد حسن الوزاني
للميمقراطية و التتمية البشرية

مقالة زمن الخوف زمن أحمد الياديني(*)

شعيب حليفي (**)

انتبهتُ إلى الإعلان عن صدور رواية " زمن الخوف " لمؤلف ينتمي إلى حقل يهتم بالأنبي والسياسي والتحلي لعدد من الظواهر السياسية والدينية التي تتحرك بسرعة وبنظام أو بغير نظام . ويتداول الكاتب أفكاره في الحقل الإعلامي بمختلف تجلياته ومن خلال تأليفات في نفس المجال .

وقد بات هذا الأمر في السنوات الأخيرة يطرح نفسه في حقل الكتابة باعتباره ظاهرة إيجابية ، لكون تحول الكاتب من مجال تخصص معين إلى الإبداع الروائي ، يعكس الرغبة في القول بلغة أخرى وأدوات تتيح التحرر من قيود أشكال تعبيرية أخرى تقتضي مواضع صارمة لا مجال فيها للحدوس والتخيلات .

إن الرواية منذ بداياتها الأولى، كانت وما زالت تقدم المعرفة الإنسانية بكافها وجوهها واحتمالاتها ، وأداة للتعبير الذاتي والرد والتغيير والتطهر والبوح والمتعة فهي تمنح التأمل والغوص والتذكر وملامسة شغاف الذات / الأنا ومحاورتها. إن الكتابة الروائية هي النهر الذي يحمل فوقه أشياء تبدو مألوفة ، ولكنه يخي في باطنه كنوزا متنوعة .

كيف يختار كاتب الانتقال ،في لحظة ما، من عالم مليء بالألغام والتقلبات .. في مجال الحركات الإسلامية والتبعات السياسية، على جسر ساخن إلى حافة الخيال المتحرك ؟

في التجارب الكثيرة، على المستوى المغربي كانت دائما سلبية ثقافة مترسخة في الثقافة الإنسانية والعربية .فابن خلدون الذي كتب ديوان العبر بمقدمته، وهو المؤرخ العالم الرصين سيكتب سيرته وسيرة مجتمع بيوح من مشاعره الجريحة بعد وفاة عائلته في عاصفة

(*) لقاء 28 يناير 2016 لقراءة في رواية سياسية اجتماعية للكاتب إدريس الكنبوري بعنوان "زمن الخوف".
(**) شعيب حليفي أستاذ جامعي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بن مسيك بالدار البيضاء وكاتب مغربي له عدد من المؤلفات في مجال النقد الأدبي وفي الرواية.

بحرية ولقائه الصعب مع تيمورلنك التتري. نفس الشيء في بوح علماء مثل الغزالي وغيره من مجالات متباعدة.

إدريس الكنبوري ليس استثناءً في التجربة المغربية التي تجعل من النص الروائي خلفية فنية للبوح والتعبير عن أفكار وتأملات وقضايا خاصة وعامة.

قرأت الرواية دون أن تكون لي أية فكرة عن موضوعها ، بل خطر ببالي- بشكل عابر- أن يكون موضوعها الحركات الإسلامية وما تخلقه من خوف حتى أن العالم يعيش زمن الخوف والخراب بفعل الإرهاب وما يحيط به.

شرعتُ في قراءة الرواية ، القراءة الأولى، وقد وجدت يسرا في تتبع أحداث نص روائي تشكل من 35 لوحة / فصل ، يرويها راوٍ وحيد شاب لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره يسكن مع أهله بقرية على أطراف سوق أربعاء الغرب وتسمى بوحزيطات.

قراءتي الأولى انصبت على البُعد الفني في الرواية حيث تبين لي أنني قد أخفقتُ في تخميني كونها عن الحركات الإسلامية .

وفي ما يلي ما سجّلته من ملاحظات:

تتبنى رواية " زمن الخوف" على خطاب طفل بريء ، يرى ويسمع ويفعل فتتشكل مشاعره ورؤاه وأفكاره وردوده انطلاقاً من كل هذا ، فهو باستمرار يربط الأحداث الراهنة بما تخزنه ذاكرته القريبة ، الوعي الشخصي ، أو ذاكرة الغير ، والده ومعلمه عبود ، وهي ذاكرة جمعية وتاريخية .. فيعمل على الربط والصوغ.

وقد جاءت الرواية في شكل مشاهد متتابعة تتخذ من الشخصيات والأحداث مادتها الروائية . غير أن الحكى لن يصل ذروته إلا حينما تنضج مشاعر الراوي وتصل مرحلة الوعي بالذات وبالمكان والهوية .

ابتداءً من الفصل 26 وما سليله إلى نهاية الرواية أصبحت لغة الرواية متجاوزة التوصيف الانفعالي وصارت قادرة على التسريد المجازي لجرح داخلي ذاتي وآخر خارجي ؛ مع موت والده جرّاء تعرضه للضرب الغادر من قرية الحشالفة، أو الوعي بالظلم الذي تتعرض له القرية أمام عينيه أو من خلال محكيات عبود عن الماضي.

إن اللغة الروائية قبل الفصل 26 لم تكن ملقمة بتلك المشاعر الحارّة التي ستصبح عليها بعد موت والده. لذلك فإن الراوي سيرمز إلى شرارة الوعي حينما يقول :

" ما أجمل صوت النار وهي تلتهم الحطب في بيتنا . هذا هو الحريق الوحيد الذي أشعر معه بالانتشاء ويُشعل في صدري فوانيس السعادة." ص133.

قبل أن يهاجمه الموت الهائج وتلك الأحلام المرتبطة بالسيل والوحل والغرق في قرية تعاني من شراسة الطبيعة وشراسة الجيران. إنه الموت الذي يصفه بشاعرية:

" هذا الطائر الخرافي الضخم الذي يدس منقاره بين الأحباب فيلتقطهم لكي يعيش " ص 138.

الموت والألم والكمند سعييد للغة الراوي وهجها وانحيازها إلى الفعل . فاللغة بالنسبة إليه – كما يصرخ الراوي متهمكا – خلقت للاحياء لكي يبدعوا بها الكذب ويكتبوا بها التواريخ الكاذبة، أما الأموات فليست لديهم لغة لأنهم غير محتاجين إلى أن يكذبوا مرة أخرى" ص142. (صفحة في فلسفة الموت ص142).

لم تخل صفحة من الأسى من فم طفل مثقل بجرح التاريخ وبكا ما كان راقدا في النفوس يأكل منها أرواحها، فتخرج الحكاية مثل جبل الدوم المطل على القرية يحميها أو تحميه ؛ الجبل الذي قال عبوم للراوي في شأنه جملة بليغة :

" كل شيء صار يُؤمك هنا في القرية ، حتى ذلك الجبل إذا هوى يوما ستكون أنت المسؤول عن رفعه وإعادته إلى مكانه " ص146.

وستعلو شاعرية تخييل الحكيم مع رؤية الراوي لأحلام تتقاطع مع الواقع الخاص والعام. فبعد سلسلة أحداث مطبوعة بالهزيمة والحزن والموت والاختفاء ، وقصه عشقه المجهض مع كنزة بنت الغاوي (الفصل 19)، سيأتي الحلم لإنقاذه من الغرق الحقيقي ، يرى نفسه يعوم في نهر امهيريز (في الفصلين 28 و33: ص 143- ص146) .

تزرخ الرواية وتحثني بالمكان ، مكان الأنا ومكان الآخر . قرية ترقد أسفل جبل الدوم وبالقرب من نهر امهيريز ؛ بها ساحة الحميرية والمسجد والمدرسة والسوق والبيوت التي هي مثل إواح أهلها تخرب متى خربوا أو فروا أو هاجروا،وعين الرمانة والمراكب والقنطرة والغابة وحبس دادة ...

أما الشخصيات في صدى للأحداث تنتمي إلى جغرافية واحدة منقسمة إلى اثنين: الحشافة بشخصياتها التي تضرر الشر دائما وتسعى إلى النهب وسرقة الآخر. يمثلها أحمد الياديني وأتباعه ؛ بينما شخصيات قرية الراوية تجيء شخصياتها طبيعية متنوعة ومتفاعلة.

عمي المكّي الراعي الصادق ، الدعوى القوي الصلب ، أو الحكماء من سيدي بوغالم ووالد الراوي والحضراوي أو عبود الحكيم العالم بخبايا التاريخ أو علولة الثري الخائن أو الصبيحي الذي مات بعدما أحس بخديعة الحشافة في حكاية الذئب ، ثم جلول ومنصور وعبد المطلب وعليكة وعبد المغيث بالإضافة إلى أقران الراوي : عيسى واحميده.

شخصيات اختفت أو ماتت أو انخرقت ، في ما بقيت الشخصيات الأخرى مستسلمة أو بلا صوت . ثلاث شخصيات هي التي ستتحكم في النهاية كونها تمثل القيم التي تبحث عنها الراوية :

سيدي بوغالم : وما يمثله من حكمة وسلطة وتدبير ؛

عبود : سلطة المعرفة التاريخية وإذكاء قيمة المقاومة ؛

الراوي : سلطة الحكاية لأنها سلاح المنتصر الحقيقي .

عدتُ إلى الرواية في قراءة ثانية ، متوقفا في هذه القراءة عند الكاتب وما يضيفه في هذا النص . وتوقفت عند دلالة سعت الرواية إلى بلورتها تخيليا وجعلها قصة تنفرع عنها باقي الأحداث ، جوهرها الصراع والعنف وما يترتب عنهما من مفاهيم الحق والظلم والعصب . وقد عبّر الكاتب عن هذه القصة من خلال أربع علامات عناصر :

أولا: شخصية الياديني ، رمز التسلط الظالم وأبن أحد أتباع الاستعمار الفرنسي الذي سرق البلاد والعباد وظلم الكثير وراكم الثروات. ثم جاء ابنه أحمد الذي واصل على نفس الطريق من خلال علاقته بالمخزن والحزب .

ثانيا : قرية الحشافة، باعتبارها نموذج القرية الظالمة التي تفترى على القرى الأخرى في تحالفات من أجل التوسع .

ثالثا : مذبحه فجر الاستقلال بسوق أربعاء الغرب والتي مارسها أفراد حزب على أفراد حزب آخر .

رابعا : حزب الاستقلال في صراعه التاريخي مع حزب الشورى والاستقلال.

تقدم رواية " زمن الخوف" روايتها لحدث تاريخي سياسي تستعيده الرواية دون التوقف عند تفاصيل كبرى ولكن عن طريق حكاية قريتين على هامش المدينة .
وقد تمت إضاءة الحكاية من خلال ثلاث حكايات موازية .

السردية الأولى ، ومنها تنطلق الحكاية، حكاية قتل الذئب من طرف الددوع المنتمي لقرية الراوي فتأتي قرية الحشالفة لتسرق انتصار قتل الذئب بالقوة والمكيدة. لذلك سيتوقف عبود كثيرا عند هذه الحادثة وتداعياتها بدءاً من انكسار قرية **بوحزيطات** وأهلها ثم اختفاء الددوع وربما قتله غيلة وموت أم الددوع كمداء على ابنها وموت الصبيحي كمداء لكونه شعر بأنهم كادوا له ثم مرض ابنه علي نفسياً.

السردية الثانية: حينما جاء رجال قرية الحشالفة مدججين بعصيم وفؤوسهم ومنعوا رجال قرية **بوحزيطات** من الحرث بدعوى أن تلك الأرض ليست في ملكيتهم، وهو أمر من الياديني . (ص 67-69).

السردية الثالثة : بعد الظلم الذي طالهم قرروا الذهاب ضمن وفد من كبار رجالات القرية لمقابلة الملك والشكوى من بطش الياديني ورجاله. غير أنهم في الطريق تعرضوا لمكيدة الغدرة ، فهجموا عليهم وعادوا أذراجهم مهزومين ومضرجين في دمائم وفي ذل مبين .

تأتي هذه السرد الثلاث لترتق حكاية واحدة في الخلفية وهي سلوك حزب تجاه حزب آخر.

وتأتي الإشارة الصريحة إلى هذا الصراع ابتداءً من الصفحة 59 (الفصل 10) بلفظ الصراع بين الحزبيين والقوميين .. ثم ما سيأتي من حكي على لسان عبود المعلم الوحيد بالمدرسة الوحيدة ، يرويها للطفل أحمد .. يروي عن مذبة رهيبة بسوق أربعاء الغرب ثم الإيحاءات الكثيرة عن غياب الدولة ووجود الحزب الذي يريد تصفية كل من يعترض طموحاته في الاستبداد (ص 86) . كما تأتي صورة علال الفاسي (ص 73) . ثم الإشارة إلى المذبة في مواقع متعددة (ص 149. ص 162) .

وإذا كانت الرواية في تصويرها لرد الظلم قد عكست المواجهة في الهروب والموت بالكمد والجروح أو الانحراف، فإن الفصل الأخير ينقلب ويقرر عدم الاستسلام ويتم الهجوم على الياديني في قلعتة واستقدامه رهينة .